سلسلة الأنوار
ISSN 2716-7852
المجلد 08، العدد 02 – 20 ديسمبر 2018

Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852
V :08, N° :02 – 20 December 2018

الكتابة التاريخية ابان العهد العثماني بالجزائر أحمد ابن هطال التلمساني –أنموذجا

Historical writing during the Ottoman era in Algeria, Ahmed Ibn Hatal Al-Telmisani - a model

د.مُحَمَّد بن يوب *

المركز الجامعي غليزان/ الجزائر (med.benyoub@yahoo.fr)

تاريخ الاستلام : 2018/09/05 ؛ تاريخ القبول: 2018/11/18 ؛ تاريخ النشر : 20 /12/ 2018

الملخص

شكلت الكتابة التاريخية واحدة من اهم الفنون المعرفية التي ازدهرت في الجزائر ابان العهد العثماني ، وخاصة تلك التي انجزت بتوجيه من السلطة الحاكمة .وفي هذ الصدد يعتبرمخطوط رسالة احمد ابن هطال التلمساني الموسوم ب" رحلة مُحَمَّد الكبير باي العرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي الجزائري" المحقق من طرف الاستاذ مُحَمَّد عبد الكريم سنة 1969 نموذجا يمكن الاستناد اليه في فهم التاريخ الجزائري العثماني. تقتضي المقارنة السوسيوتاريخية لهذا المؤلف الا ينظراليه على انه خزان للمعلومات ، وانما نصوص تكشف عن الاوضاع السياسية و الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لجزائر القرن 18 كالتداخل بين السلطة الزمنية والروحية ،علاقة الاندماج/ التمرد للقبيلة والطريقة الصوفية مع السلطة المركزية ،غلبة الثقافة الفقهية على الكتابات التاريخية والتعابيرالادبية ، في مقابل تراجع العلوم العقلية و التقنية واعتماد البايلك التركي على نخب فكرية ودينية تدافع عنه باسم الدين .

الكلمات المفتاحية: : العهد العثماني، السلطة المركزية، القبيلة، الطريقة الصوفية، الثقافة الفقهية.

Abstract

Historical writing was one of the most important cognitive arts that flourished in Algeria during the Ottoman era, especially those that were completed under the direction of the ruling authority. Professor Muhammad Abd al-Karim pointed out in 1969 a model that can be relied on in understanding the Ottoman Algerian history. The socio-historical comparison of this author requires not to view it as a reservoir of information, but rather as texts that reveal the political, social, economic and cultural conditions of 18th century Algeria, such as the overlap between temporal and spiritual authority, the relationship of integration/rebellion of the tribe and the Sufi method with the central authority, the dominance of jurisprudential culture over historical writings. and literary expressions, in contrast to the decline of mental and technical sciences and the dependence of the Turkish pilgrim on intellectual and religious elites who defend it in the name of religion..

Keywords : Ottoman era, central authority, tribe ,sufismway , jurisprudential cultur.

* الباحث المُرسل:

مقدمة :

تتعدد المؤلفات التاريخية التي تناولت الوجود العثماني بالجزائر سواء المحلية أو الأجنبية ، وفي هذا الصدد يعتبر كتاب رحلة "محمد الكبير باي الغرب الجزائري الى الجنوب الصحراوي الجزائري " لاحمد بن هطال التلمساني واحدا من اهم المصادر التاريخية التي يستند اليها في اي بحث يؤرخ للفترة العثمانية من جوانب مختلفة. فالنظرة الموضوعية العلمية لا تعتبر هذا المؤلف مجرد خزان معلومات، وانما خلاصة للأوضاع السياسيةو الاجتماعية والإقتصادية والثقافية التي ميزت الجزائر خلال القرن 18 م في ظل الوجود العثماني .لا شك ان الحدث الذي البارز الذي تعرض إليه ابن هطال بالشرح والتفصيل هو حملة الباي محمد الكبير على الجنوب الصحراوي الجزائري لإخضاعه ، وقد كان أحد الشاهدين له .غيرأن المؤلف يكشف عن جوانب الحياة المختلفة في الجزائر العثمانية والثقافي كطبيعة النظام السياسي وعلاقته بالمجتمع ، الأوضاع الاقتصادية والدينية و الثقافية وعلاقة النخبة الفكرية بالسلطة وهذا ما اريد تناوله بالبحث والتفصيل.

1– نظرة عن الكاتب و الكتاب :

أحمد بن هطال : بيوغرافية موجزة :

لا تتوفر لدينا معلومات كثيرة عن الحياة العائلية عن المؤلف الا ما تعلق بنسبه، فهو معروف بأبي العباس الحاج احمد بن محمد بن محمد بن علي بن احمد بن هطال التلمساني. ويبقى نشاطه في ظل دوائر الحكم أبرز المؤشرات للتعريف به بشكل اعمق .فقد كان من المقربين من بايات وهران، الذين اعتادوا على توظيف كتابا ومستشارين من الأدباء والمؤرخين امثال مصطفى بن عبد الله صاحب " الرسالة القمرية " ، إبن سحنون الراشدي صاحب " الثغر الجماني " ، وحسن التركي صاحب " در الأعيان " .

ولم يضطلع ابن هطال بهذا الدور فقط ، وإنماعينه الباي محمد الكبير مبعوثا له لإداء مهمات في الخارج ومما يرويه ابن سحنون في كتابه " الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" أن هذا الباي، واستعدادافتح وهران التي كانت تحت السيطرة الاسبانية " وجه كاتبه أحمد بن هطال مع قاضي المحلةمصحوبين بهدايا الى سلطان المغرب الاقصى ،ليسمح لهما بشراء ما يحتاج اليه الباي من اسلحة حربية " (1).

وانطلاقا من المغرب الاقصى اتجها الى جبل طارق حيث استلم قنطارين ونصف من البارود من الانجليز، سبق للباي محمد الكبير أن دفع ثمنها. وبعد وفاة هذا الباي استمر في نفس المهمة مع ابنه عثمان باي ، ثم الباي مصطفى بن عبد الله العجمي رابع بايات وهران . وكان قد النشاط الفكري الجانب الآخر في حياة بن هطال، وأهم ما يعرف به انتاجه الاسطوغرافي، ومن ابرز انجازاته المخطوط / الكتاب الموسوم بـ " رحلة محمد الكبير الى جنوب الصحراوي الجزائري " ،والذي لم يخفى فيه أهمية دراسة التاريخ في حياة الشعوب والامم. ومما ذكر فيه " فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا واكملها محاسن وفخرا فهو احد ما يطلق عليه علم العربية كان احق ما تنفق فيه الذخائر السلمية وتصرف اليه المهج الزكية إذ به عرفت به قدماء الامم ، وبه حفظت مكارم اخلاقهم والشيم ، فاشتغلت به علماء كل قطر وصنفت فيه ادباء كل عصر حتى ملئت فيه كل الخزائن ، وكثرة فيه الرسائل والدواوين "(2)

وما يميز ابن هطال عن معاصريه من النخب الفكرية انه كان يشارك في الحروب التي كان يخوضهاالبايات ضد المتمردين، ومنها المعركة التي وقعت بين جيش الباي مصطفى والطائفة الدرقاوية في أوائل ربيع الاول سنة 1219 هـ في المكان المسمى بـ"فرطاسة" بين مينا و واد العبد ، والتي انتهت بإنتصار ساحق للدرقاويين حيث قتل عدد كبير من جنود الباي ومنه كاتباه الحاج احمد بن هطال وابي عبد الله محمد الغزلاوي (3).

تعريف الكتاب موضوع الدراسة :

يعتبر كتاب " رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري " في الأصل مخطوطا انجزه احمد بن هطال برغبة من محمد الكبير باي الأيالة الغربية ، حيث كان يشتغل ككتاب ومستشار لديه عندما استعد لتنظيم حملة عسكرية على الجنوب الصحراوي الجزائري . وقد حقق هذا المخطوط الأستاذ محمد عبد الكريم إلى جانب مخطوطات أخرى (4).

وكما يذكره محمد بن عبد الكريم عن موضوع نسخة المخطوط انه يؤرخ لمرحلة معينة من مراحل التاريخ العياني وفترة محدودة في فترات الزمن ."فقد عاشها المؤلف ليقيد حوادثها ويحبر ما هو اجدر بالتحبير ، فيطلع عليه من يأتي من بعده من ابناء البشر وذلك كله تلبية لباي وهران محمد الكبير ونزولا عند رغبته " (5) .

يتعرض الكتاب الى تسجيل صاحبه احمد بن هطال لكل الاحداث ، ووصف كل الظواهر التي صادفتها حملة الباي محمد الكبير ، انطلاقا من معسكر الى الجنوب الصحراوي، ثم العودة اليها

باليوم والسوايعالشيء الذي اهل هذا الكتاب لأن يكون مرجعا مهمًا – كما سبق ذكره –كشف عن جوانب الحياة المختلفة للجزائر في العهد العثماني في القرن 18.

2–نمط إشتغال السلطة في الجزائر العثمانية :

يشكل الباي محمد الكبير وانجازاته في الميدان خلال الحملة على الجنوب الصحراوي سنة 1785 الموضوع الاساسي الذي اشتغل عليه احمد بن هطال. وهو بذلك يكشف عن مرتبة سياسية جديدة في هرم السلطة العثمانية على أرض المغرب الأوسط خلال هذه الفترة ، إن مرتبة الباي تندرج ضمن التحول العام الذي حدث في آلية قيام الدولة في شمال افريقيا مع بداية القرن 16 ، بالانتقالمن النمط الدائري الخلدوني إلى شكل آخر من الدولة ويسمى بالدولة المخزنية ، تكون فيها السلطة من النوع الذي اطلق عليه ماكس فيبر بالنظام الباتريمونياليle régime patrmonial. إنه نظام سياسي يعتمد على " وجود اسرة حاكمة ذات جيش وبيروقراطية مستقلين عن المجتمع المدني ويكون ولاؤها لشخص الحاكم واسرته ، وهذا النوع يختلف عن الدولة الخلدونية التي ترتكز على العصبية القبلية من ناحية وعن الدولة الحديثة التي يكون ولاء المواطنين والموظفين فيها للمؤسسات ولحكم القانون من ناحية اخرى " (6).

وفي ظل هذا النظام السياسي يشكل الباي قيادة وسيطة في هيرارشية إدارية يحكم على مستوى مقاطعة إدارية تعرف بالبايلك . يعينه الحاكم العام للبلاد الذي اصبح يعرف بعد 1671 بالداي ، بعدما تتوفر فيه شروط اهمها الأصل التركي والمؤهلات لخدمة السلطان أبرزها توفير الأمن وفرض سلطة الدولة. ومن مؤشراتها ضمان دفع الرعية للجباية ضمانا لتوريد خزينة الدولة

وعلى هذا الأساس ارتقى محمد الكبير إلى السلطة كباي على مستوى الإيالة والغربية سنة 1779م بعد اكتسابه لتجربة القيادة وإدارة الأزمات ، وبرزت ملامحها مع تعيينه قائدا على القبيلة الكبيرة"فليتة" سنة 1178 هـ من طرف صهره ابراهيم باي. ثم سرعان ما اشركه في الحكم بتعيينه خليفة له سنة 1172 هبعدما ابدى براعة في التسيير وقد تنامي نفود محمد الكبير كرجل للدولة وخادم للسلطان بعدما شارك جيشه في رد العدوان الاسباني على الجزائر سنة 1179 هـ إبان حكم الداي محمد عثمان باشا. غير أن منصب الباي وديمومته يظل مرتبطا بمدى دفعه للدنوش ، وهي حصيلة الجباية النقدية والعينية التي كانت تلزم كل إيالة دفعها للسلطة المركزية دعما للخزينة العامة . وإستنادا الى ابن سحنون الراشدي،فإن هذا الباي (محمد الكبير) " كان يأتي إلى الجزائر مرةً كل ثلاث سنوات

لدفع الضريبة ... وكان شعب مدينة الجزائر ينتظر بفارغ الصبر وقت قدوم هذا الباي الكريم وكان مجموع ما يدفعه لبيت المال مائة ألف سلطاني ذهب ، ومثلها يوزعها على الشعب " (7) .

ولأن هذا المنصب كان مصدر لتكريم الثروة وأساس لترقية الاجتماعية والجاه ، فقد سعى البایاتللإحتفاظ على مواقعهم. ومن ذلك تقديم الهدايا والعطايا رجال السلطة اصحاب القرار. فالباي محمد الكبير قد اعتاد الى جانب دفعه الدنوش تقديم هدايا كالحيوانات والحبوب والعديد من العبيد والخيول المسومة إلى ذوي الوظائف السامية (8) أو دفع أموال لشراء هذا المنصب (9).

3-إنقسامية اجتماعية قبلية وإثنية

عندما نتأمل وقائع حملة الباي محمد الكبير على الجنوب الصحراوي نكتشف على أن المجتمع الجزائري على غرار المجتمعات العربية الما قبل استعمارية كان انقساميا une société segmentaire حيث استمرت القبيلة او العرش الوحدة الفاعلة في التنظيم الاجتماعي رغم محاولات الاسلام تحويل الرابطة القبلية الى رابطة الأخوة الدينية و الانتقال من وضعية القبيلة إلى مرحلة الأمة الجامعة. يبرر ابن هطال أن رحلة الباي قد مكنته من احتكاك بعدة قبائل ذكرها بالاسم. ومنها اولا خالد ، اولاد براهيم ، اولاد خليف ، اولاد صالح ، اولاد ناير ... الخ . كل قبيلة تشكل بناءا اجتماعيا تتكون هرميا من عائلات موسعة ثم بطون (فرق) ثم الى كنفدرالية قبلية مثل كنفدرالية"فليتة" ، ولكل واحد منها مجال يعرف باسمها .

وبحكم الحركية الأفقية و العمودية التي عرفها المجتمع المغاربي الماقبلإستعماري ، فإن اصل القبيلة ينطلق في مرحلة أولى من جد مشترك ، ومع اختلاطها مع مجموعات اخرى بسبب المصاهرة والتحالف والولاء ، تختفي الرابطة الدموية وتحل محلها الرابطة الوهمية. وبالتالي يصبح إطار القبيلة بمعناه الواسع الرمزي يستند إلى المجال (الاقليم) التي تلتحم عليه الجماعة القبلية (10). وكل قبيلة سلطة تدير شؤونها تنتخب " ديموقراطيا" وفق اعراف القبيلة ، ويمثلها شيخ القبيلة والمتحدث بإسمها مع الآخر (القبيلة الاخرى أوالسلطة)،فيتضح ذلك في العبارة التالية " وهنا أمر الباي محمد الكبير مشائخ اعراب تلك النواحي ان يرجع كل واحد لبيته وان يكون بارا لأهله ولرعيته .(11)"

وفي مثل هذه الجماعات يلعب القديسين أو الأولياء الصالحين سواء الاموات او احفادهم دورا بارزا في تماسكها لما يمتلكونه من رصيد معرفي شرعي وقوى خارقة (مول لبلاد ، الكرامة... الخ) ومن هنا نفهم الدور المزدوج الذي كان يلعبه الوليّ الصالح داخل القبيلة للحفاظ على مقدرات القبيلة

وتماسكها لذلك كان كل فرد او جماعة تقصد القبة سواء بشكل عادي او في المناسبات ومنها المواسم (الوعدات) وتأدية حقوق الولي (صدقة ، هدية) خشية عدم تحقق امال المجموعة مثل الجدب او فساد الاحفاد (الجياح) (12).

وينطبق الامر نفسه على احفاد الاولياء الصالحين الاحياء ومعلمي القرآن و أئمة المساجد وكانوا يعرفون بالمشايخ او العلماء. وكثيرا ما كان يطلق عليهم بكلمة " سيدي " يحتلون مكانة مركزية داخل القبيلة لا تقل شأنا من مكانة شيخها . ونلمس دور العلماء كفواعل اجتماعية و سياسية في المجتمع القبلي من خلال ما جاء به ابن الهطال عندما تردد الباي محمد الكبير في اجتياح مدينة بني الاغواط حيث تحصن في مركزها المتمردون عن البايلك بقوله :" وبها (بني الاغواط) العلماء الذين حصر الله فيهم خشيته وواعدهم على ذلك جنته ،و وصفهم بأخيار البرية" (13). وعلى هذا الاساس اراد الباي ان يخاطب مباشرة علماء بني الاغواط محذرا إياهم من امكانية هلاكهم على يديه لقدر الله ، فكتب اليهم خطابا جاء فيه :" إلى كافة بني الاغواط بعد السلام عليكم ورحمة الله إن بلغكم كتابي هذا اخرجوا غدا عيالكم واولادكم من هذه القرية " (14).

وفي ظل الجماعة القبلية ، فإن الفرد يضحي بفردانيته في سبيل الجماعة .كذلك نراه يتموقع خلف المجموعة حتى في المسائل التي تهمه شخصيا بشكل مباشر ويضطر إلى مطابقة سلوكاته مع المجموعة.

فإعلان الحرب على قبيلته أو تعرضها لغزو يحتم على هطا الفرد الانخراط ألليا مع أفراد قبيلته لرد العدوان أو المشاركة في أعمال تهم القبيلة بما في ذلك وضع ممتلكاته في سبيل المجموعة.

و إذا كانت البوادي و الأرياف هي الفضاءات التي استوطنت فيها القبائل لتصبح تشكل الغالبية العظمى لسكان الجزائر في القرن 18 م ، فإن ذلك لا ينبغي وجود أقلية حضرية في بعض المدن مثل معسكر تلمسان ، ندرومة وهران في حدود بايلك الغرب ولم تكن تتجاوز معدلات التحضربها 5 %حتى سنة 1830حسب تقديرات إيف لاكوست Yves lacoste .و في مثل هذا الفضاءات تتراجع الرابطة القبلية الإرثية ليحل محلها الإنتماءالمشترك حسب الحي و الحرفة (حدادون ، خبازون ، معلمون ...إلخ)

4- القبيلة بين الاندماج و التمرد عن السلطة المركزية :

شكلت عملية إدماج القبيلة في إطار الدولة الجزائرية الجديدة إبان حكم الأتراك إحدى التحديات التي واجهتها السلطة المركزية ، إن هذه الألية لم تكن تعني فرض سلطة الدولة فحسب بل ضمان موارد مالية لخزينة الدولة. ولن يتحق ذلك إلا بإجبار المجموعات القبلية و الحضرية على دفع الجباية المحلية من لزمة و الغرامة و الزكاة و الإتاوة . ذلك أن طبيعة كل نظام باتريمونيالي يحتم على السلطة القائمة " الحفاظ على فعالية و نجاعة نظام جبائي قادر على تمويل الإدارة و الجيش " (15).

شكلت مجموعات قبلية معنية في مختلف البالكات مورد الضرائب للبايلك ، و كانت تعرف بقبائل الرعية ومن ثمة يشير ذلك إلى إندماجها في إطار الدولة الجديدة . كانت السلطة البايلكية تعتمد في الظروف العادية على زعماء القبائل وتفوضهم في جمع الضرائبو الأتاوات من قبائلهم ومن قبائل أخرى أو الأرياف القربية في مقابل بعض الامتيازات (خفض الضرائب ، هدايا) غير أنه و في كثير من الحالات كانت تتمرد كثيرا من هذه القبائل على سلطة الدولة لاتشكيكا في شرعيتها، و إنما في رفض دفع الضرائب المفروضة عليها . لذلك كانت تضطر السلطة إلى تنظيم حملات عسكرية ردعية لإجبار هذه القبائل على أداء واجبها إعتمادا على جيش نظامي بري (المحلة) و الذي يكون مدعوما بقبائل المخزن و هي تلك القبائل الموالية للسلطة البايلكية ، تقيم عادة حول مركز إقامة البايلك ، تضع على ذمة الدولة مجموعة من فرسانها مقابل امتيازات كالإقامة على أراضي خصبة وخفض للضريبة أو إعفائها، و هذا مايبرزه بن هطال في توصيفه لغزوة الباي محمد الكبير للجنوب الصحراوي. فعندما خطط لإطلاق حملته إستعان بقبائل المخزن الغربي ويتكون من الدوائر ، الزمالة ، الغرابة و البرجية و المخزن الشرقي و يضم تجمع المكاحلية ، أولاد سيدي عربي صبيح ، أولاد عباس و غيرهم من أهل النواحي الشرقية من مينا إلى الشلف (16).

يخبرنا إبن هطال منذ البداية أن حملة الباي مبررة لخروج القبائل عن سلطة الدولةو مؤشراتها رفض دفع الضريبة حيث قال :" أعلم أنه لما اتفق نظر سيدنا المذكور (الباي محمد الكبير) أطال الله بقاءه و جعل النصر دائما خلفه و أمامه في جهة القبلة رأى أنها ذات بلدان كثيرة و أعراب راحلة و مقيمة .إلا أنها لم تتلها أيدي السلطنة ولم يكن منها لملك مصلحة ولا منفعة ، كأنها أمة أبقت من أهلها، أو حرة نشرت من بعدها ، فشمر لها عن الجد عازما على رد مابها من النفار و الصد . فجمع جموعه و قواده و لم يرد على أن كان جيشه حشمه وخدامه فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول بقومه وعسكره ..." (17).

و أثناء مسيره من معسكر موطن عاصمته. بإتجاه بني الأغواط ، و أمام تفوقه العسكري كانت القبائل تستسلم حتى قبل أن يصل إليهم و البعض الأخر ترك موطنه نجاة بأبنائها ويتجلى ذلك عندما اقتربت المحلة بمنطقة "تاويلة". يقول ابن هطال في هذا الصدد :" و أما أهلها من الرجال و النساء فسمعوا بقدومه قبل وروده عليهم فهربوا بأنفسهم و ذراريهم ، ولم يأخذوا من أمتعتهم إلا ما خف حمله ، وكثر سومه ، وتركوا ماعدا ذلك " (18).

غير أن هناك قبائل أبت الاستسلام وسعت إلى مقاومة المحلة، تدفعها في ذلك العصبية كقيمة روحية ترتكز على تضامن وتماسك داخلي تجاه الخارج (قبيلة أخرى ، سلطة مركزية). و تتجلى العصبية القبيلة في مفاهيم تفصيلية ذات دلالة خاصة مثل النعرة ، التناصر ، اندفاع المطالبة هدفها النهائي المواجهة سواء كانت مطالبة أو دفاعا(19). و نلمس هذا المحرك القبلي عند المجموعات القبلية التي تعيش على الرحال حيث لا حدود تضبط مجال تحركها مع اعتبار نفسها كتابا حرا شبه مستقل :" وبذلك كثر التمرد في تللك الفضاءات قديما و حديثا"(20) .

يسرد ابن هطال نماذج من القبائل التي قاومت حملة الباي الكبير كبني الأغواط الذين أبوا أن يكونوا رعية بعدما أعلنوا رفضهم دفع الضريبة التي فرضها عليهم الباي محمد الكبير ،ذكرهافي كتاب حمله إليهم المخازنية مبعوثيه و الأكثر من ذلك هدد بني الأغواط المخازنية : " وقالوا كلهم هيهات ، هيهات فلا يكون شيء من هذا مدة الحياة ، ثم أمروا المخازنية بالإرحال عنهم سالمين و إلا يذهبون نادمين" (21) .وشرعوا في الاستعداد للحرب بتحصين مدينتهم و الدفاع عنها .

غير أن الباي محمد الكبير لم يزده ذلك إلا إصراراً على مقاتلتهم و إخضاعهم لسلطنة البايلك وأعطى الأوامر بإقتحام المدينة بعد مشاورات مع المحلة :" فما استتم كلامه حتى إنهمل العسكر كالسيل وتراكم كقطع الليل و اتبع كل واحد رايته وقصد كل قاتل جهته التي عينت له ... فلم يكن غير ساعة حتى بلغوا إليهم ... ولما رأى أهل المدينة أن العذاب قد أحيط بهم ، و البلاء نزل بساحتهم علموا أنه سيصلهم و يستأصلهم فجالوا يمينا و شمالا ، وتزحزحوا عن مواطنهم ولحق أولهم بأخرهم . ثم إنكشفوا و ركب ظهورهم العسكر يقتلونهم كيف شاؤوا و أين شاؤوا وقبضوا منهم جماعة فأتواتهم أسارى " (22) ثم يذكر حتمية إستسلامهم لسلطة البايلك و الوعد بالتحول إلى قبيلة رعية ملزمة بدفع الضرائب الموجبة عليها. وهكذا نقف على حقيقة تاريخية تتمثل في ظاهرتي التمرد / الاندماج للقبيلة الجزائرية في إطار دولة البايلك العثماني و التي لازمت اشتغال الإيالة الجزائرية منذ تأسيسها في منتصف القرن 16 إلى دخول الاستعمار الفرنسي سنة 1830.

5- بروز المثقف الواعظ للسلطان:

عندما نتأمل في تعابير ابن هطال في كتاب " رحلة الباي محمد الكبير " ، وانطلاقا من موقعه في المؤسسة العثمانية ككاتب سر و مستشار للباي محمد الكبير ، سندرك انه كان من بين العلماء المدافعين عن السلطة العثمانية في الجزائر . ولا يكمن موقفه هذا في الامتيازات المادية والمعنوية التي يجنيها من موقعه ، وإنما قناعة منهأن السلطة العثمانية قائمة على الشرع الاسلامي ، وتعبر عن خلافة المسلمين والدفاع عن أراضيهم ضد كل معتدا او مهدد للجماعة الاسلامية التي يقودها الاتراك الممثلة في الباي محمد الكبير . وتعرف هذه الفئة عند بعض المفكرين بوعاظ السلاطين ، أو بما ستعرف به في عصرنا بالمثقفين والملتزمين بتبرير سياسة النظام القائم . والثابت في فكر هذه الفئة على مر الزمن انها تسخر امكانيتها العلمية في خدمة السلطة الحاكمة ، وتقديم المشورة لها " وتحاول اضفاء الشرعية على نظامها ، هدفها الرئيسي خدمة مصالحها ، وكسب رضا السلطان ورجال دولته البارزين ... وتسعى هذه الفئة لكل جهودها وبشتى الطرق المحافظة على النظام القائم (23).

و تحصينا لموقعها و خوفا على مصالحها تحارب هذه الفئة المثقفة كل حركة اجتماعية تنتقد السلطان ومهاجمتها ونعتها بأقبح الأوصاف ويبرز ذلك في إضفاء ابن هطال القداسة على الباي محمد الكبير مقابل توصيفات مذمومة للقبائل المتمردة . فالباي محمد الكبير هو " قامع المبغضين ، ومدوخ المارقين ، من جمع الله له خصال الشرف والمجد وموجات الشكر والحمد ، محل الجلالة والعظمة والجود ، المخصوص بنصر الأراء والبنود ... الملحوظ برعاية الله "(24) .

ومثل هذا النوع المثقفين اشتهرت بهم الايالة الجزائرية حيث وظفوا كتاباتهم في تبرير سياسة الحكام وانتقاد كل المعارضة . فكمثل ابن هطال ، فهاهو ابو راس الناصري يهاجم ثورة درقاوة واصفا إياها بالفتنة وما ترتب عنها من اثار سلبية، فيعبر عن ذلك بقوله :" ثم عمتنا فتنة درقاوة وأنا لم نكن فيها اتقياء بررة ولا اقوياء فخرة ... فاتصلت علينا اواصر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد مودوع " (25).

وهكذا نصل الى حقيقة تارخية ان ابن هطال و من سار على منهجه من العلماء بإضفائهم الشرعية على ممارسات السلطنة العثمانية والدفاع عن سلاطينها ابتعدوا على النظرة الموضوعية والحياد في معالجة المشكلات التي كانت تواجهها الرعية ، وان كان انتاجهم الاسطوغرافي يستحق التقدير باستناد إليه في فهم طبيعة الأوضاع و الأحداث إبان الحكم العثماني بالجزائر

وما دعم هذه الفئة من المثقفين تناجي شعراء البلاط الباحثين عن المال والمجد والذين نظموا قصائد طوال يمجدون فيها السلاطين العثمانيين حكام الجزائرالجدد في كل مناسبةكإنجازاتهموانتصاراتهم على الأعداء . فيخبرنا ابن هطال انه حين عاد الباي محمد الكبير إلى معسكر عاصمته قدمت اليه الوفود بتهنئته، وكان من بينهم احمد بن محمد بن علال القرومي.وقد نظم قصيدتين تتعلق الأولىبإنجازه المسجد والثانية انتصاره في حملته الردعية على الجنوب الصحراوي، ومما جاء فيهما:

*لقد انجز الامال وعدا من النصر ** كما ابرز الاقبال مكانة في القدر*
*كأن بلاد الشرق و الغرب كفه ** فيأمر بالعمران فيها و بالقفر*

6- التقليدية في الكتابة التاريخية:

وكما رأينا سابقا ، فإن هطال يبدي في مقدمة مؤلفه " رحلة الباي محمد الكبير" اهتماما كبيرا بالتاريخ لأهميته في الحياة الأمم ، و لذلك نراه يؤكد في مقدمة كتابه على أن كان واجبه التأريخ للرحلة/ الغزوة قائلا : " أردت أن أذكر منه نبذة ، أخدم بها حضرة ... الملحوظ برعاية الله السيد محمد باي ابن مولانا السيد عثمان باي " (27).

وكل متأمل إلى طريقة كتابته التاريخية سيدرك انها لا تختلف كثيرا عن طريقة مؤرخي القرن 17 و18 مثل ابن ميمون الجزائري وابي الراس الناصري. فطريقة تأليفه تقليدية بحتة تسرد فيها الحوادث والوقائع ومجرياتها دون تحليل بذكر اسبابها وعللها وآثارها ، كما اقتضته المنهجية العلمية الخلدونية من موضوعية ربط العلة بالمعلول ، وتناول الظواهر الاجتماعية بالدراسة العلمية ملاحظة وتجربة واستنتاجا.

ولا يمكن تفسير طريقة ابن هطال وغيره من المؤرخين خلال العهد العثماني الا بغلبة ثقافته الدينية الصوفية والتي تفسر الأحداث والظواهر المختلفة بالقدرة الالاهية ولا دخل للقوى الطبيعية والانسان فيها فهو يربط التاريخ بحمله الاعتبار والتدبر فلا يمر حدث إلا ووظف الآيات القرآنية والمفاهيم الفقهية . يتضح ذلك في قوله " الحمد لله فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا "(28) ، أو ملاحظته لجبل الملح وقد تغير لونه ، فيصرح متعجبا " فإذا نظر العاقل هذا الجبل ظهر له ما يدل على قدرة الله تعالى ، والتي لا يعجز لها ممكن ، فصبحان مكون الاشياء بقدرة ومظهر العجائب بحكمته " (29).

وهكذا نستخلص ان الكتابة التاريخية لإبن هطال تختزل وجود ذهنية أساسها تصورات فقهية غيبية أو خرافات ميزت العلماء و رجال الدين والعوام . أما الفكر العلمي العقلاني ، فإن كثيرا من المصادر القديمة المتداولة تشير الى وجود بعض أعلامه لكنه ظل مهمشا تهميشا واسعا. وهو ما يحيل إلى وضع ثقافي يتميز بالجمود والتحجر (30).

7- طبيعة الاقتصاد وملامح ولادة التخلف:

لم تكن " رحلة الباي محمد الكبير الى الجنوب " الصحراوي الجزائري حملة ردعية فحسب، بل كانت أيضا أحداثا تخللتها كشفت عن طبيعة الاقتصاد المحلي في ظل الإيالة الجزائرية ، فإذا تأملنا الضرائب التي كان يفرضها الباي محمد الكبير على القبائل المهزومة او الغنائم التي كان يحصل عليها افراد المحلة عند كل غارة سنجد أنها تتكون بالأساس من القمح والشعير وبعض الفواكه والماشية كالغنم ، والإبل والأحصنة الشيء الذي يحيل إلى التأكيد على ان الاقتصاد الجزائري ما قبل الكولونيالي كان يستند إلى نشاطين أساسين : زراعة الحبوب وتربية الماشية والتي تخضع لخصائص الظروف المناخية السائدة ومناخ متوسطي وشبه متوسطي في التل والسهول العليا والصحراوي الجاف جنوبا وحيث تكون الارض جماعية تماشيا مع التنظيم القبلي السائد .

كان الانتاج في معظمه موجها نحو الاستهلاك العائلي اكثر منه الى السوق وما يشير إلى ذلك ما يذكره ابن هطال عبارة : " فتراهم يفتحون المطامير " (31). أي ان المجموعات القبلية كانت تدخر جزءا من محصولاتها تحسبا لأزمات (جفاف ، برودة الشتاء) وبالعادة كانت الأسواق هي الفضاءات التي يتم فيها التبادل سواء عبر المقايضة او النقود و من بينها البوجو والسلطاني ، كما يتضح ذلك من خلال الحملة التي نظمها الباي محمد الكبير ان اقتصاد المجموعات القبيلة واجه ازمات عندما تتعرض الى الغزو وما تلاها من مصادرات الفائض الاقتصادي للتكوينات الاجتماعية " وقد حد بدوره من تبلور هذه التكوينات الى طبقات اجتماعية متطورة ، وتستطيع بدورها ان تقود عملية تحديث المجتمع كما حدث في أوروبا(32). ويضاف إلى ذلك عتاقة وسائل الانتاج وان كان النشاط الاقتصادي في مخرجاته تركيم ثروات المنتجين سواء المالكين لوسائل الإنتاج أو العمال المباشرين) فإن ممارسات اجتماعية برزتخلال الحملة وهي تراكم ثروات البعض دون ذلك فقد كانت الغنيمة أولى هذه الممارسات والتي افقرت المجموعات القبلية ، واثرت افراد المحلة وخاصة اصحاب الرتب العليا وثاني ممارسة هي العطاء بتقديم الأموال و الهدايا لبعض الأعيان و القادة (33) والتي يتولاها السلطان مقابل الولاء له. وسواء الغنيمة او العطاء كلاهما لا يشجعان على العمل المنتج ويمثل ذلك

مقدمات لولادة الاقتصاد الريعي L'économie de la rente حيث يراكم الفرد الثروة دون جهد عضلي او فكريوعدم جدوى العمل المنتج

وفي ظل هذه الوضعية الاقتصادية واما ضعف العلوم التقنية وما ترتب عنها من عدم تطور وسائل الانتاج تمكن من تطوير الانتاج .وعندما نعلم ان خلال القرن 18 كانت أوروبا تشهد ثورة صناعية اهلتها لتصبح اكثر تقدما بعدها سنقف على حقيقة وهي ان ملامح التخلف في الجزائر بدأت تتشكل حتى قبل دخول الاحتلال الفرنسي سنة 1830م .

خلاصة :

شكلت الكتابة التاريخية واحدة من اهم الفنون المعرفية التي ازدهرت إبان العهد العثماني وقد كان احمد بن هطال التلمساني من ابرز المؤرخين الذين نشطوا في هذا الفن إلى جانب الدور الذي أوكل إليه في المؤسسة السياسية العثمانية ككاتب سر ومستشار لدى بايات وهران .

يعتبر الكتاب الذي حققه الاستاذ محمد الكريم " رحلة الباي محمد الكبير نحو الجنوب الصحراوي " من ابرز ما الف احمد بن هطال التلمساني برغبة من الباي محمد الكبير الذي أراد منه تقييد احداث هذه الرحلة / الغزوة .

كانت طريقة ابن هطال في الكتابة التاريخية لا تختلف عن منهجية مؤرخي القرن 17 و 18 م والتي لا يعتمد في التحليل على تعبير ظواهر وربط الاسباب بالنتائج تماشيا مع الطريقة العلمية والخلدونية. وإنما ربط كل الظواهر بالغيبيات وامتياز القدر بالإلاهية هي الفاصلة . مما يكشف عن غلبة الثقافة الفقهية على مؤرخي هذه الفترة من تاريخ الجزائر العثمانية .

ومهما كانت هذه الكتابات التاريخية بعيدة عن الموضوعية فإنها تشكل مرجعا أصليا في التعمق في فهم التاريخ الجزائري خلال العهد العثماني وخاصة في مرحلة الدايات ، تجعل المؤرخ المعاصر يتجنب الكتابات التاريخية الغربية الكولونيالية التي كثير منها قد زيف الحقائق التاريخية .

إن أهم ما يفيدنا ابن هطال في كتابته التاريخية انه شكل نموذجا للمثقف الملتزم بقضايا السلطة السياسية التأريخ للدولة والحكام وهو بلا شك أسلوب انتشر في التاريخ المعاصر من خلال كتابة بيوغرافيات الشخصيات السياسية الشهيرة مثل ستالين ، جورج واشنطن ، شرشل ، ديغول ، عبد الناصر ... إلخ

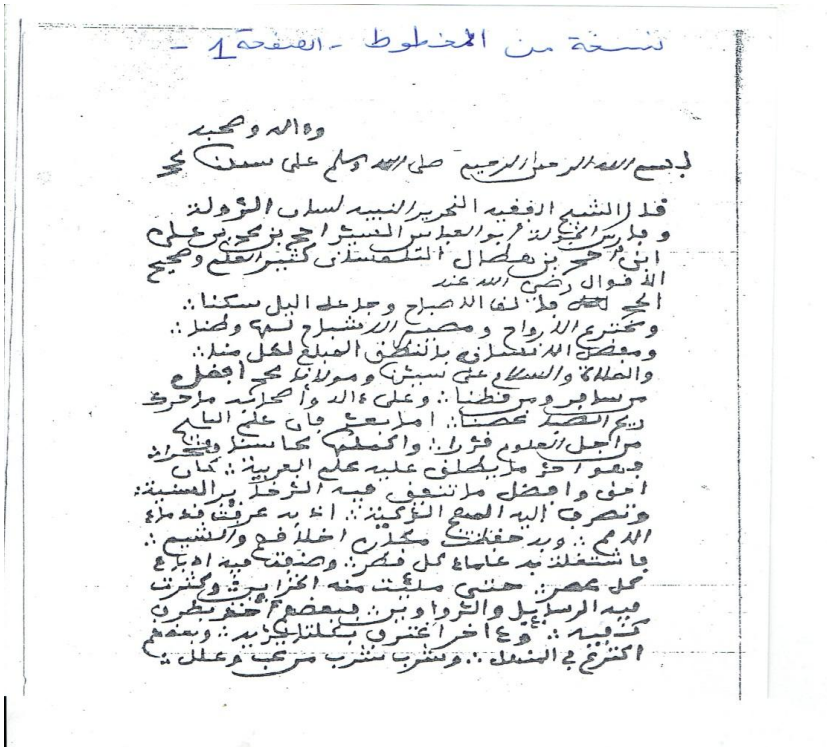
نسخة من المخطوط - الصفحة 1 -

وآله وصحبه

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله وسلم على سيدنا محمد

قال الشيخ الفقيه النحرير النبيه لسان الدولة
و فارس الحلبة أبو العباس السيد احمد بن محمد بن علي
ابن مرزوق الحفيد بن هطال التلمساني كثير النقل وصحيح
الأقوال رضي الله عنه
الحمد لله الذي فلق الاصباح وجعل الليل سكنا
ومخترع الأرواح ومصير الأشباح نهبا ولحدا
ومبعض الأنفس بالتطرق المبلغ لكل منها
والصلاة والسلام على نبيه ومولانا محمد أفضل
مرسل ومرفقنا وعلى آله وأصحابه ما حرك
ريح القصب غصنا. أما بعد فإن علم الطب
من أجل العلوم قدرا وأكملهم بحاستي فخرا
وهو الذي ما يطلق عليه علم العربية كان
أهل وأفضل ما تنفق فيه الرحلة بالعشية
وتصرف إليه الصحة المكينة. إذ به عرفت فوائد
الدم. وبه حفظت محاذير اختلاف الطبع والشيم.
فاشتغلت به علماء كل قطر. وصنفت فيه ابدع
كل عصر. حتى سلكت منه الخزائن وكثرت
فيه الرسايل والدواوين. فبعضهم اختصر بطرق
فيه. وآخر اغترف بغلتاريه. وبعضهم
اكثر في النقل. وشرب شرب مرتحب وعلل

الهوامش و المراجع :

1- أحمد بن هطال التلمساني ، رحلة محمد الكبير ، باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري ، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1968 ، ص13

2- المرجع نفسه ، ص 35

3- للمزيد أنظر : حسن خوجا التركي ، در الاعيان ، نقلا عن بن هطال في مقدمة الكتاب لمحمد بن عبد الكريم ، مرجع سابق ، ص 14

4- نذكر منها اتحاف المنصفين والادباء لحمدان خوجا، وشاح الكتائب و زينة الجيش المحمدي الغالي لقدور بن رويلة ، التحفة المرضية لإبن ميمون الجزائري ، وبهجة الناظر لعبد القادر المشرفي

5- أحمد بن هطال ، التلمساني، مرجع سابق ، ص11
6- د.سعد الدين ابراهيم وآخرون ، المجتمع الدولة في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة الغربية ، بيروت ، ط2 ، ماي 1996 ، ص114
7- أحمد بن هطال ،مرجع سابق ، ص30
8- المرجع نفسه ، ص30
9- تجلى هذا الامر عندما قدم احد الاغنياء المسمى الحاج خليل اموالا للداي محمد عثمان لشراء منصب الأيالة الغربية إثر وفاة إبراهيم باي سنة 1179هـ، بعدما كانت الرعية تطالب بإسناد هذا المنصب إلى محمد الكبير
10- إبن خلدون ، المقدمة بيروت : دار الكتاب ، دار احياء التراث العربي ، ص130
11- أحمد بن هطال ، مرجع سابق ، ص 37 .
12- M'hamedboukhobza ,L'agro –pastoralisme traditionnel en Algérie, De l'ordetirbal au désordre colonial . OPU , Alger , 1982,p73
13- أحمد بن هطال ، مرجع سابق ، ص 61
14- المرجع نفسه ، ص61
15- د. محمد عبد الباقي الهرماسي ، المجتمع والدولة في المغرب العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،ط 1 1988 ،ص23
16- أحمد بن هطال ، مرجع سابق ، ص48
17- المرجع نفسه ،ص ص36-37
18- المرجع نفسه، ص42
19- محمد عابد الجابري ، فكر ابن خلدون ، العصبية والدولة ، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط7 ،2001 ،ص170
20- محمد نجيب بوطالب،سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي ، سلسلة اطروحات الدكتوراه ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1 ، جويلية 2002،ص107
21- أحمد بن هطال المرجع نفسه ،ص54
22- المرجع نفسه ص18

23- د. أحمد سالم الاحمر، المثقف العربي ، واقعه دوره ، دار الطليعة ،بيروت ،العدد 7 السنة 26 ، ماي 1990 ، ص10

24- إبن هطال ، مرجع سابق ص ص 35-36

25- أبو راس الناصري ، "درء الشقاوة في حروب درقاوة"نقلا عن محمدة غانم ، ظاهرة الزلزال في الإسطوغرافيا الجزائرية التقليدية " بين الذاكرة والتاريخ " مجلة إنسانيات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، العدد 3، وهران، 1997 ، ص 59

26- ابن هطال ، مرجع سابق ، ص ص 84-86

27- المرجع نفسه ، ص ص 35-36

28- المرجع نفسه ، ص 34

29- المرجع نفسه ، ص 40

30- يشير محمد غانم إلى هذا الواقع الثقافي في معرض تحليلي للأراء المفسرة لزلزال وهران سنة 1790 نقلا عن أحمد بن سحنون الراشدي في كتابه " الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، مرجع سابق ، ص ص 47 -66.

31- ابن هطال ، مرجع سابق ، ص 51

32- د.سعد الدين ابراهيم ، المجتمع و الدولة في الوطن العربي ، مرجع سابق ، ص 118

33- نقصد هنا الهدايا و التبرعات التي يقدمها السلطان إلى بعض أفراد الرعية من عائدات الغنائم و الضرائب دون رقيب لضمان ولائهم ، فيصبحون من الأغنياء من دون بذل أي جهد. لكن ذلك لم يمنع بعض السلاطين كالباي محمد الكبير من بذل العطاء من أجل الأعمال الخيرية ذات النفع العام كبناء المساجد و حفر الآبار و دور العلم و منح الطلبة و المعلمين .